أثر الدعاية السليمة
فى النهضات المختلفة

للأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم

الدعاية أو الدعوة فن له قواعده وأصوله ومراميه . وهى ترتبط أشد الارتباط بفنون التربيـة والتعليم ، فكما أن التربية تستند فى أصولها ومبادئها ونظرياتها على علم النفس بجميع فروعه ، كذلك الدعاية تستند دعائمها على هذا العلم المسمى علم النفس بجميع فروعه التربوية والاجتماعية والسياسية والتجارية والفلسفية .

والدعاية تسبق كل انقلاب سياسى ، أو اجتماعى ، أو دينى أو اقتصادى ، أو عمرانى وكل لون جديد من ألوان الحياة .

لأن هـذه الانقلابات لا تكون إلا بعد تهيئة النفوس لقبولها ، وإعداد العقول للتسليم بها وبما تحتويه من مبادئ جديدة تقوم على أنقاض المبادى القديمة أو تمتزج بها امتزاجا يحيلها إلى لون جديد .

ومن غير الدعاية لا يكون للأمر الجديد أية قوة فى الظهور والانتشار ، فلا يمكن أن يكون عقيدة يعتنقها أفراد الشعب ، بل إنهم ينكرون هـذا الأمر المستحدث إنكارا فيه عناد ومكابرة — فالنـاس أعداء ما يجهلون — وهـذا طبيعى ، لأنهم يتعلقون بالمـاضى الذى عرفوه واصطلحوا على تمجيـده واتفقوا على إقراره ، فيؤثرونه على الجـديد الذى لم يدخل نفوسهم ولم يبلغ قلوبهم — ولهم المعذرة فى هذه المقاومة ، إذ لا بد أن يدركوا هذه المبادئ الجديدة ، ولو بعض الإدراك وأن يتعرفوا شيئا من آثارها ونتائجها ، لتتغير عقليتهم بعض التغير ، وتتبدل نفسيتهم بعض التبدل ، وإلا نشبت المعارك فى السر والعلانية .

من أجل هذا كانت الدعوة ضرورية . والتاريخ شاهد على ضرورتها : فهؤلاء الأمويون قد دعوا الناس إلى سياستهم مستعينين بطائفة من فحول الشعراء والخطباء والكتاب والمصلحين . وقام الهاشميون بالدعاية لأنفسهم ، يدعون الناس إلى نصرتهم ضد الأمويين .

وأولئك رجال الشيعة من العلويين بالمغرب قد استعانوا برجالاتهم واتباعهم وشعرائهم في نشر مبادئهم السياسية والدينية ؛ فكان من بين دعاتهم : ابن هانئ الأندلسي الشاعر المشهور الذي نشر بقصائده كثيرا من تعاليم الشيعة وكان له أثره البالغ في حمل الناس على التمسك بمعتقداتهم الشيعية ، وعلى الالتفاف حول الخلفاء العلويين .

وقامت الثورة الفرنسية على إثر الدعاية المستمرة للحرية والإخاء والمساواة ، وقام بها أولو الرأى من الأدباء والحكماء من أمثال "روسو بسير ودانتون وماراه وغيرهم" .

وقد أمر الله جل شأنه ، رسله الكرام بالدعوة إلى سبيله بشتى الطرق والوسائل المختلفة فجاهدوا ، مبشرين ومنذرين وداعين إلى الله حتى أبلغوا الرسالة ، وأنقذوا الناس من الضلالة .

وليست الدعاية بالأمر الهين ، فهي تحتاج إلى الخبرة بنفسية الشعوب ، وإلى الإلمام التام بعقلياتهم ، وبيئاتهم ، ودياناتهم ، وإلى الإحاطة بأمزجتهم ، ومشاربهم وسائر أحوالهم وما يميلون اليه ، وما ينفرون منه . كما تحتاج إلى قدرة فائقة في استهواء الجماعات واستمالتها وجذب روحها . ومن ثم كانت الدعوة الناجحة عزيزة المنال لا يقوى عليها إلا من كان ذا فراسة صادقة ، وعبقرية نادرة ، وثقافة واسعة ، وخبرة طويلة بشؤون مجتمعه . لأن الناس لا يؤمنون بالاصلاحات الحديثة ، ولا يدينون بها إلا بعد الاقتناع بصحتها وفائدتها ولا يتحقق هذا الاقتناع إلا بالأدلة الظاهرة الساحرة التي تحمل معها الحجة والقوة . وأيا كان نوع الأدلة : فهي إما يقينية مبنية على البرهان العقلي والمنطق . وإما مقبولة وهي الصادرة من مصادر موثوق بصحتها ولا يشك أحد فيها . وإما ظنية وهي التي توضح الثمرة التي يجتنيها الناس من وراء تمسكهم بالأمر الجديد . كما تبين المضرة التي تلحقهم من جراء تمسكهم بالأمر القديم .

ويقوم بهذه الأدلة أولئك الدعاة المخلصون لدعوتهم فيبثونها في غضون خطبهم ومقالاتهم وكتاباتهم وأشعارهم وأحاديثهم فيذعن الناس لأوامرهم واتجاهاتهم ، ويسلمون تسليما فيه اقتناع بمبادئهم واصلاحاتهم . كما تحتاج الدعوة إلى مظاهر خلابة ، تنبعث منها قوة عظيمة يكون بها استهواء الناس واستمالتهم إلى ما يراد منهم بالتأثير في وجداناتهم وعواطفهم وميولهم تأثيرا يثير كوامن نفوسهم ويدفعهم إلى النشاط والحماس والدفاع والجهاد .

ولا شك أن أقدر الناس على إقناع الناس واستمالتهم هم الأدباء والخطباء لقدرتهم على تصوير المواقف ولمبادئ تصويرا ناطقا واضحا ، فيه إقناع وإيحاء واستهواء . وهم في كل عصر وفي كل أمة يحاولون ألوية التطورات والانقلابات والنهضات

وقد خاب — فى كل زمن — من دعا الناس بالعسف والإكراه ، وساقهم بالسيف والرماح إلى الإذعان لأوامره ، والخضوع لقوته . فإن دعوة تؤسس على الإكراه لا تولد إلا الكراهية ، ولا تنتج سوى المقت والرعب ، ولا تأتى إلا بعكس المطلوب ، لأن الناس إذا أرغموا على أمر أخفوا فى أنفسهم مالا يبدون ، فتتحرك جوارحهم الظاهرة بغير ماتنطق به قلوبهم الباطنة ، وتتحرك ألسنتهم الخاشعة بغير مايحول فى خواطرهم وذواكرهم . وسرعان ماينقلبون أعداء مجاهرين بالعداوة إذا ماأحسوا من الداعى الجبار ضعفا فيه وتراجعا ، أو شعروا أن سيفه قد حاد إلى غمده ، والآن — والحمد لله — قد وقفت مصر على أبواب نهضة تشمل جميع شؤونها — وأمامها ميدان فسيح فيه من المشروعات والإصلاحات والأعمال مايدر عليها الخير ، ويسبغ عليها النعم ظاهرة وباطنة .

وجمهرة الشعب فى حاجة ملحة إلى تهيئة أذهانهم وتنوير عقولهم ، وتبصيرهم بهذه المآثر والجلائل التى تنتظرهم وهم عنها ساهون .

وليس هناك من وسيلة أجدى من دعوتهم إليها بالطرق الصحيحة ، والأساليب المشروعة ، والدعاية السليمة المبنية على الإخلاص والتقوى ، والمنفعة العامة ، حتى يعرفوا مواطن الإصلاح وعناصر التقدم ، ومواضع السعادة . ويقفوا على مكامن أدوائهم وأسباب مرضهم وشقائهم . بهذا ينقادون إلى الخير عن رغبة فيه ، وشغف به ، وبدونه تثور ثائرتهم ، ويحتدم غضبهم عن جهالة وغرور ، فيسدون السبيل على كل جديد ، وينقدونه بوابل من إيذائهم . وهذا طبعى فى البشر منذ أن خلق البشر . ويؤيده قول الله تعالى (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) فلا بد من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

ومن عوامل الدعاية إلى الإصلاح الاجتماعى فى مصر ماتقوم به بعض الصحف والمجلات من إرشاد ، وتوجيه ، وبيان . وفى مقدمتها " مجلة الشؤون الاجتماعية " ، فلها خطرها فى هذا الميدان . ولها أثرها البارز للعيان . وهى مجلة جدية إصلاحية تفيد فى دعوة المصريين إلى نواحى الخير والإصلاح من ناحيتين ، أولاهما ناحية الطلاب بالمدارس الثانوية والعالية ، لأنهم فى دور التكوين والتثقيف ، وهم جنود المستقبل ، فتثقفهم المجلة على الخطط الاجتماعية ، والمشروعات الإصلاحية ، وتزيد خبرتهم وثقافتهم ومعرفتهم بالبيئة وما يجرى فيها وما يراد لها . وهى بمثابة الرائد الذى يهدى إلى الرشد ولا يكذب أهله .

وأخراهما ناحية الشعب والمتعلمين ممن أتموا مرحلة التلمذة المدرسية ونزلوا إلى ميدان الحياة العملية — فهى تفيدهم فى التوجيهات العامة ، والإرشادات المهنية والعلمية التى قد تغيب عن عقولهم ، وتدفعهم إلى التعاون الفكرى بتوحيد غاياتهم ، وإراداتهم ، وأهدافهم الوطنية .

وفوق هـذا وذاك تلقى شعاعا وضاء على المبادىء العـامة التى تتجه إليها الأمة المصرية فى نهضتها الحديثة الميمونة .

على أن المبادئ إذا لم تؤيدها عوامل كافية تحفظ لها بقاءها وقوتها فى النفوس وفى الحياة ، فإنها سرعان ما تنهار وتمحى . ومن بين هذه العوامل : حياطتها بالمظاهر المـادية من أعلام ، ومساجد ، ومجلات ، وحفلات ، ومظاهر أخرى تقوى الأمل والثقة والرجاء ، وتجعل الفكرة ماثلة أمام البصائر والأبصار ٤

محمد أبو بكر ابراهيم

المفتش بوزارة المعارف

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

(قرآن كريم)